أصول الفقه (2)

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله, وبعد:

نذكر اليوم إن شاء الله المقدمة الثانية من مقدمات علم الأصول، مع ما تيسر من مقدمة المصنف رحمه الله.

ثانيا: استمداد علم أصول الفقه:

يُستَمَدُّ علمُ أصول الفقه من أربعة مصادر:

الأول: نصوص الوحي قرآنًا وسُنةً:

وهذا المصدر هو أساس العلوم الشرعية كلها، فكل علم لا أصلَ له في الكتاب والسُّنة، فليس من علوم الشريعة، وقد سبق أن بيَّنا أن من أهم ما أسَّس علمَ الأصول عند الصحابة، وجعل منهجَهم فيه منهجًا فريدًا، هو حضورهم عصر الوحي، وملازمتهم رسول الله ﷺ.

ومن عجبٍ أنك لا تكاد تجد من علماء الأصول قديمًا - فيما أعلم - مَن يذكر هذا المصدر، بل الكل يذكر المصادر الثلاثة التالية دون ذكر هذا المصدر، إلا أنه قد ذكره بعض المعاصرين؛ كالدكتور عياض بن نامي السلمي في (أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله)، فجزاه الله خيرا، بل لقد اقتصر البعض على ذكره وحده؛ كما يظهر من صنيع الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد؛ حيث قال:

"هذا العلم من نصوص الوحيين، وطريقة الصحابة - رضي الله عنهم - في القضاء، والفتيا، ومَن سلك سبيلهم بعد، فهو من جهة أصوله وقواعده من صلب نصوص الشريعة" المدخل المفصل (937/2).

الثاني: أصول الدين:

وذلك لتوقُّف معرفة كون الأدلة الكلية حجة شرعًا على معرفة الله تعالى بصفاته، وصدق رسوله ﷺ فيما جاء به عنه، ولهذا يذكرون من أصول الدين بعض المتعلق بأصول الفقه؛ وقال الزركشي: "إن علم أصول الفقه فيه ألفاظٌ لا تعلم مسمَّياتها من غير أصول الدين، لكنها تؤخذ مسلَّمة فيه" البحر المحيط للزركشي (46/1).

الثالث: اللغة العربية:

وذلك لتوقف فهم ما يتعلق بها من الكتاب والسنة وغيرهما عليها، فإن كان من حيث المدلول، فهو علم

اللغة، أو من أحكام تركيبها، فعلم النحو، أو من أحكام أفرادها، فعلم التصريف، أو من جهة مطابقته لمقتضى الحال وسلامته من التعقيد ووجوه الحسن، فعلم البيان بأنواعه الثلاثة، ونحو ذلك من فنونها.

الرابع: تصور الأحكام (الفروع):

بمعني: تصور أحكام التكليف؛ فإنه لابد من تصوُّرها ليتمكَّن من إثباتها ونفيها، ولتوقف معرفة كيفية الاستنباط على ذلك التصور، فالحكم على الشيء فرعُ تصوُّره.

وهذا أوان الشروع في المتن مستعينا بالله عز وجل، ومن كانت معه نسخة من المتن فوجد فرقا بينها وبين المتن الذي أذكره فليضبطه على ما أثبته، فهو الصواب مقابلا على النسخة المخطوطة إن شاء الله:

[مقدمة المصنف]

قال رحمه الله:

(بسم الله الرحمن الرحيم أحمد الله على إحسانه وإفضاله كما ينبغي لكرم وجهِه وعز جلاله، وأصلي على نبيِّه المكمل بإرساله، المؤيَّد في أقواله وأفعاله، وعلى جميع صحبه وآله).

ابتدأ المصنف ـ رحمه الله ـ كتابه بالبسملة ـ كما هي عادة المؤلِّفين ـ تأسيًا بكتاب الله، واتباعًا لسنة رسول الله ﷺ حيث ابتدأ بها في كتابته إلى الملوك وغيرهم، وتبركًا وتيمنًا واستعانةً على الإتمام والتقبل.

و(**باسم الله**) لابد فيه من تقدير محذوف متعلق بالباء؛ يعني: إذا قلنا باسم الله فباسم الله ماذا؟ لابد أن نقدر شيئا محذوفا في الجملة مع كونه مرادا.

قد اختلف النحاة: هل يقدر المحذوف اسمًا أو فعلًا؟ يعني: إذا كان في الابتداء، هل يكون تقديره: باسم الله ابتدائي، أم باسم الله أبدأ؟ وكلاهما قد ورد به القرآن:

فالاسم كما في قوله تعالى: **{وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [هود: 41].**

والفعل كما في قوله تعالى: **{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق: 1].**

والمراد باسم الله هنا كل اسم من أسماء الله عز وجل.

ولفظ الجلالة (الله) علمٌ على الرب تبارك وتعالى، وهو الذي يوصف بجميع الصفات، فيقال: الله الرحمن، والله السميع، والله البصير، ونحو ذلك، ولذلك هو من الأسماء التي لا يصح أن تطلق على غيره سبحانه.

(الرحمن الرحيم) اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، وقيل: (رحمن) أشد مبالغة من (رحيمٍ)؛ لأن بناء (فعلان) لا يقع إلا على مبالغة الفعل؛ نحو قولك: رجل غضبان، وأما (فعيل) فقد يكون بمعنى الفاعل والمفعول.

وقال بعض الأئمة: الرحمن لجميع الخلق، الرحيم بالمؤمنين. قالوا: ولهذا قال: **{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ } [الفرقان: 59]**، وقال: **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5]**، فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعمَّ جميع خلقه برحمته، وقال: **{وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: 43]**، فخصَّهم باسمه الرحيم، قالوا: فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه، والرحيم خاصة بالمؤمنين. (تفسير ابن كثير (126/1).

واسمه (الرحمن) خاص به سبحانه لم يسمَّ به غيرُه، ولذلك لما تَجَهْرَمَ مسيلمة الكذَّاب وتسمَّى برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب وشهَّر به؛ فلا يقال إلا مسيلمة الكذاب.

خلافًا لاسم (الرحيم) فقد سمَّى به نبيه، ويصح أن يُسمَّى به غيره.

قال المصنف رحمه الله: (((أحمد الله على إحسانه وإفضاله كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله))).

اختلف في الحمد هل هو بمعنى الشكر، أم غيره؟ فذهب بعضهم إلى التسوية بينهما، وذهب بعضهم إلى أن بينهما عمومًا وخصوصًا، فالحمد أعمُّ من الشكر من حيث ما يقعانِ عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول: حمدتُه لفروسيته وحمدته لكرمه، وهو أخص؛ لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون بالقول والعمل والنية، كما تقدم، وهو أخص؛ لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية، لا يقال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته على كرمه وإحسانه إلي(تفسير ابن كثير (128/1).

وقوله: **(إحسانه وإفضاله)** الإحسان ضد الإساءة، وفوق العدل، فالعدل المساواة في المكافأة إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ، والإحسان أن يقابل الخيرُ بأكثرَ منه، والشر بأقل منه؛ كما في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ} [النحل: 90] (تاج العروس، للزَّبِيدي (444/29).

والفضل: الزيادة، وأفضَلَ: زاد، يقال: أفضل صفهم على صفنا: زاد عليه. وأفضل: أوصل فضله إلى غيره، يقال: أناله من فضله وأحسن إليه. (العين، المنسوب للخليل بن أحمد (44/7).

وقيل: الإحسان النفع الحسن، والإفضال النفع الزائد (الفروق اللُّغوية، لأبي هلال العسكري (ص197).

وقيل: الإفضال: الإحسان، فهما بمعنى واحد. (الصحاح، للجوهري (1791/5)، وهذا هو الأشهر والأقرب؛ إذ كلاهما زيادة على العدل.

وقوله: (كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله)؛ أي: أحمَدُه الحمد الذي ينبغي، وهذا هو المرجوُّ، وإلا فلا يُحصِي أحدٌ الثناءَ عليه سبحانه؛ ففي الحديث: **((لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك)) (صحيح مسلم (486).**

ويوصف وجهه سبحانه بالكرم؛ كما في قوله تعالى: **{وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن: 27].**

والعز: القوة، والجلال: العظمة، كما قال ابن عباس في تفسير **{تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}** [الرحمن: 78]؛ ذي العظمة والكبرياء. (تفسير ابن كثير (510/7)

قال المصنف: ((وأصلِّي على نبيه المكمل بإرساله، المؤيَّد في أقواله وأفعاله، وعلى جميع صحبه آله)).

بعد الحمد ذكر الصلاةَ على النبي ﷺ كما هي عادة العلماء، وقد اقتصر هنا على الصلاة دون التسليم، وهو صنيع بعض العلماء، ومنهم الإمام مسلم بن الحجاج ـ رحمه الله ـ في مقدمة الصحيح.

وقد كرِه بعض العلماء ذلك؛ لقول الله تعالى: **{صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: 56]**، ولكن ذهب البعضُ إلى عدم الكراهة، لورودِ بعض النصوص بالصلاة دون التسليم؛ كما في قوله ﷺ: **((مَن صلى علي صلاةً صلى الله عليه بها عشرًا))صحيح مسلم (384).**

و(أُصلِّي) هنا خبرية الصيغة إنشائية المعنى، والمراد: سؤال الله الصلاة على نبيه، والأشهر والأرجح أن صلاة الله على نبيه: ثناؤه عليه في الملأ الأعلى؛ كما ورد عن أبي العالية(تفسير ابن كثير (457/6).

(المكمل بإرساله) تمام الكمال في الرسالة، التي يصطفي بها الله مَن يشاء من عباده، ويتم بها كمالهم.

(المؤيَّد في أقواله وأفعاله) من قِبَل ربِّ العالمين، فلا يقع منه زللٌ في قول أو فعل من أمور الوحي، وإن وقع زلل في اجتهاد لم يُقَرَّ عليه، بل يؤيِّده رب العالمين بالتصحيح والتوجيه؛ كما في قوله تعالى: **{عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ} [التوبة: 43].**

(وعلى جميع صحبه وآله).

يعني: وأُصلِّي على جميع صحبه وآله، والآل على الراجح هم أتباعُه على دينه، فيدخل فيهم آل بيته قطعًا، رضوان الله على الجميع.

(باختصار من كتابِي: إتحاف العقول بشرح قواعد الأصول ومعاقد الفصول)

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه أجمعين.

#برنامج_تقريب_علوم_الشريعة

#أبو_علياء_محمد_سعد